الفصل الخامس

القواميس والمعاجم

لم يكن فى مصر قبل الحملة الفرنسية عارفون باللغات الغربية أو قواميس لها ، فلماء الحملة يحضرون معهم بعض القواميس اليوس بقطر يضع أول قاموس فرنسى عربى ، الجماعات والمجلات الأسيوية وجهودها ، قاموس الأب رفايل ، مطبعة بولاق تطبع بعض قواميس اللغات الثلاث ، ابراهيم باشا يشير على رفاعة بوضع قاموس فرنسى عربى ، طريقة رفاعة فى الحاق بعض المعاجم لكتبه التى ترجمها ، قاموس سريوس افندى ، تلاميذ رفاعة يقتدون به جهود خريجى الألسن لوضع القواميس ، مترجمو الهندسخانة ينهجون نهج رفاعة ، جهود مدرسة الطب لترجمة القواميس الطبية الفرنسية ، قاموس الشذور الذهبية ، قاموس مستر «لين»

ذكرنا من قبل أن الصلات العلمية بين مصر والغرب كانت مقطوعة مبتوتة طول العهد المملوكى العثمانى فلم يكن فى مصر معهد واحد تدرس فيه أية لغة من اللغات الأوربية ، ولم يكن فى مصر من له معرفة بإحدى هذه اللغات ، أو يتحدث بها ، غير أفراد الجاليات الأوربية ، وقد كانوا يعيشون فى عزلة وفى أحياء خاصة بهم حيث تقوم متاجرهم ومساكنهم .

وقد كانت الحكومة منذ عصر المماليك حتى مجىء الحملة الفرنسية تحتفظ دائما بوظيفة تقليدية هى وظيفة «الترجمان» ، وكانت «خدمته الوقوف فى كل ديوان لأجل تعريف الكلام بكل لسان»[1] ، وقد ظل هذا التقليد معمولا به حتى أوائل عصر محمد على ، فتولى هذا المنصب بوغوص بك ، ثم لقب فيما بعد بناظر الخارجية ، وتولى إدارة ديوان التجارة والأمور الخارجية ، أو بمصطلح العصر التركى «أمور أفرنجية وتجاره مصرية ديوانى»[2] .

فلما وفدت الحملة الفرنسية على مصر عانت ما عانت من مشكلة الترجمة[3] ، واستعانت على حلها بطائفة من المستشرقين ، وبعض من حضروا معها من المستشرقين ، وقد كانت ترجمة هؤلاء اجتهادية غير دقيقة ، فقد كانت تنقصهم القواميس التى تجمع بين مفردات اللغتين الفرنسية والعربية ، وقد ذكر الجبرتى أنه رأى فى مكتبة المعهد العلمى عند زيارته لها كتبا «مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها ، واشتقاقاتها بحيث يسهل

(١) توفيق غربال ، تقرير حسين افندى ، ص ١٣ و ٥٦ .

(٢) Deny, Sommaire des Archives Turques, etc. pp. 105, 125, 290. 332, 333.

(٣) انظر كتابنا «تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية» ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٠ .

عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت [١] ، ولكن هذا النص عام لم يفصل أنواع اللغات التى كانت تتناولها هذه القواميس ، وهل كان من بينها ما يجمع بين اللغة العربية وأى لغة أوربية أخرى ؟

كذلك ذكر الأب لويس شيخو خطأ أن مطبعة الحلة طبعت — فيما طبعت فى مصر — معجما فرنسياً عربياً [٢] .

وبدأت الحلة قبيل رحيلها تعد بعض الشبان الأقباط لتعلم اللغة الفرنسية ، فلما عادت الحلة إلى فرنسا خرج معها بعض هؤلاء الشبان . وقد نبغ منهم بعد سنوات أليوس بقطر الذى وضع فى فرنسا أول قاموس فرنسى عربى ، وأشرف على طبعه فى باريس سنة ١٨٢٩ بعد وفاته المستشرق كوسان دى برسيفال وكانت حركة الاستعمار فى أوربا فى ذلك الوقت بسيطة ، والتنافس بين الدول الأوربية على أتمه ، وصحب هذا التنافس تنافس آخر لدراسة أحوال الشرق — مطمح الأنظار — ولغاته ، وتاريخه ، وجغرافيته ، وعاداته ، وأنشئت فى دول أوروبا المختلفة الجماعات والمجلات الآسيوية ، ومدارس اللغات الشرقية ، وأنتجت هذه الحركة نتاجا وافراً من دراسات قيمة كان من بينها قواميس كثيرة تجمع بين اللغات الشرقية الثلاث — العربية والفارسية والتركية — وبين اللغات الأوربية المختلفة .

فلما بدأت حركة الترجمة فى عصر محمد على حوالى سنة ١٨٢٠ ، وكانت متجهة فى أول الأمر إلى النقل عن اللغة الإيطالية ظهرت الحاجة إلى قاموس يجمع بين مفردات اللغتين العربية والإيطالية ، وكلف بوضعه الأب روفائيل زاخور راهبة ، فلما أنشئت المطبعة فى أواخر سنة ١٨٢١ ، كان ثانى أوثالث كتاب طبع بها هو قاموس ايطالياني وعربي ، يتضمن بالاختصار كل الألفاظ الجارى بها العادة ، والألزم لتعليم الكلام ، ولمفهومية (كذا) اللغتين على الصحيح ، وقد يقسم إلى قسمين ، القسم الأول فى القاموس المرتب على حسب المعتاد ، وبموجب ترتيب حروف الهجا ، القسم الثانى ، ويتضمن مجموع مختصر من أسماء وأفعال من الأشد إلزام وأكثر فايدة لدرس اللغتين » [٣] .

وقد وضح المؤلف الأغراض التى دفعته إلى وضع هذا القاموس فى مقدمته فقال : « .. فقد اضطررت من قبل وظيفة التعليم . وسهوله درك معنى الألفاظ بهذه اللغة والتفهيم على التلامذة الدارسين ، وعلى من يتدرب لترجمة الكتب من المتفقهين ، لأنى (كذا) أؤلف قاموساً ترجماناً وجيزاً ، مقتطفاً عزيزاً ، يشتمل على

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٣٦ . وقد كانت المطابع الأوروبية قد أخرجت فى أواخر القرن ١٨ بعض القواميس التى تضم اللغة العربية للغات الأوروبية ، أنظر مثلا القاموس الأسبانى اللاتينى العربى الذى طبع فى مدريد سنة ١٧٨٧ .
Francisco Canes : Dictionario Espanol Latio-Arabigo, Madrid, 1787.

(٢) الآداب العربية فى القرن ١٩ ، ج ١ ، ص ٣ .

(٣) أنظر مقدمة القاموس .

كل ما يحتاج الأمر إليه ، وما كان المعول عليه ، وذلك فى اللغتين الإيطاليانية والعربية مما فى الترجمة من الألفاظ الضرورية . . [١] ، وقد طبع هذا القاموس فى بولاق سنة ١٢٣٨ (١٨٢١) .

وقد كانت الترجمة فى عصر محمد على واسعة الآفاق ، فشملت النقل عن كل اللغات — شرقية وغربية — ولهذا لم تلبث مطبعة بولاق أن أخرجت بعد خمس سنوات (١٢٤٢ — ١٨٢٦) قاموساً فارسياً تركياً من وضع خيرت أفندى [٢] سكرتير ديوان محمد على (ديوان افنديسى) . ثم قامت المطبعة على إخراج عدد من القواميس التركية والفارسية والعربية [٣] ، وكلها فيما عدا « تحفهٔ خيرت » مما سبق وضعها وطبعها فى الآستانة .

ففى سنة ١٢٤٥ (١٨٣٠) طبع فى بولاق « تحفهٔ وهبى » وهو قاموس فارسى تركى سبق أن طبع فى الآستانة سنة ١٢١٣ (١٧٩٨) .

وبعد سنة واحدة (١٢٤٦ — ١٨٣١) طبع موجز عن القاموس السابق بعنوان « نخبهٔ وهبى » وأضيفت إليه الألفاظ العربية فأصبح قاموساً تركياً عربياً .

وفى سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) طبع قاموس فارسى تركى صغير عنوانه « سبحهٔ صبيان » وكان قد طبع فى الآستانة سنة ١٢١٧ (١٨٠٢) .

وفى سنة ١٢٥٠ (١٨٣٥) طبعت الترجمة التركية مع المتن العربى لقاموس الفيروز ابادى تحت عنوان « الاقيانوس البسيط فى ترجمة القاموس المحيط » ، وكان قد ترجم وطبع فى الآستانة سنة ١٨١٤ — ١٨١٧

وفى سنة ١٢٥١ (١٨٣٦) طبع « برهانى قاطعى » وهو قاموس فارسى تركى ، وضع المتن الفارسى ابن خلف ، وترجمه إلى التركية احمد أمين افندى ، وكان قد طبع فى الآستانة سنة ١٢١٤ (١٧٩٩) .

وفى سنة ١٢٥٣ (١٨٣٨) طبع « الترجمان » وهو مجلد صغير به مفردات عربية وتركية .

وفى سنة ١٢٥٥ ؛ طبع « تحفهٔ خيرت » وهو قاموس تركى عربى فارسى صغير تأليف خيرت افندى وضع لاستعمال تلاميذ المدارس .

هذه هى قواميس « اللغات الثلاث » كما كانت تسمى . وقد أدت مهمتها ، فسهلت للقائمين بالترجمة عن إحدى هذه اللغات إلى الأخرى عملهم .

---

(١) أنظر مقدمة القاموس ، وعنوانه الكامل بالايطالية كما يلى :

"Dizionario italiano e arabo, che contiene in succiato tutti i vocaboli che sono più in uso e più necessari per imparar a parlare le due lingua correttamente."

(٢) خيرت افندى هو صاحب كتاب رياض الأدباء وحياض الكتبا . أنظر تفصيلات أكثر عنه وعن مؤلفاته فى : Deny, Op. Cit., pp. 3—4.

(٣) Journal Asiatique, 4e. serie, 2, 1843, pp. 24—61.

وحوالى سنة ١٨٢٥ تحول محمد على بوجهه عن ايطاليا إلى فرنسا ، فاستدعى إلى مصر الفرنسيين ، . . سنة ١٨٢٧ أنشئت مدرسة الطب المصرية ، وبدأت تتغلب على مشكلة اختلاف اللغات بالمترجمين وبترجمة الكتب الفرنسية إلى العربية ، وفى سنة ١٨٢٦ أرسلت أكبر بعثة إلى فرنسا ، وفى سنة ١٨٣٢ عاد معظم أعضاء هذه البعثة وبدأوا يشاركون فى حركة الترجمة عن الفرنسية إلى العربية ، وهنا ظهرت الحاجة الماسة إلى قاموس بل قواميس علمية مختلفة للغتين .

أحس هذه الحاجة قبل غيره كبير مترجمى العصر رفاعة رافع الطهطاوى ، وأحسها وهو فى فرنسا يتخصص فى الترجمة ، ويترجم فى مختلف الفنون والعلوم ، وأغلب ظنى أنه لم يوفق هناك إلا إلى قاموس بقطر فقد ظهرت طبعته الأولى فى باريس بعد وصوله بثلاث سنوات ، وقبل عودته إلى مصر بسنتين ، فلما عاد إلى وطنه وبدأ يراجع بعض الكتب التى ترجمها فى باريس وبعدها للطبع أحس هذا النقص مرة ثانية ، وأحس به إحساساً قوياً ، وعبر عن شعوره هذا فى أول كتاب طبع له وهو كتاب المعادن النافعة ، الذى طبع فى بولاق بعيد عودته فى سنة ١٢٤٨ ، فقد قال فى مقدمته ، وقد فسرت مفرداته على حسب ماظهر لى بالفحص التام وما تعاصى منها حفظت لفظه ، ورسمته كما يمكن كتابته به ، وربما أدخلت بعض تفسيرات لطيفة . . والعذر لى إذا زل قدم ترجمتى فى بعض التفاسير ، لأن اللغة الفرنساوية لم يفض ختامها إلى الآن بقاموس شاف مترجم [١] » . ويبدو ان رفاعة كان قد عبر عن شعوره هذا لابراهيم باشا عند مقابلته له أول وصوله إلى الاسكندرية ، فبادر إبراهيم باشا وكلفه بوضع هذا القاموس ، فقد أشار رفاعة فى هامش الكتاب السالف أمام الجملة السابقة إلى هذا الأمر فقال « وقد أمرنى سعادة ولى النعم أفندينا إبراهيم باشا بترجمة قاموس ، وعين لى حضرة عثمان بك (يقصد عثمان باشا نور الدين) قاموس أكاديمية ، ولكن عاقنى عنه عوايق . . منها أشغال أبى زعبل ومنها أنه يحتاج إلى وضع المترجم فى كتب خانة ويحتاج أيضا إلى أن يكون معى مساعد فرنساوى ، بل هذا الشغل هو شغل نحو عشرة أنفار حتى يكون مستوفيا ومستوعبا للالفاظ الاصطلاحية . [٢]

أمام هذه العقبات لم تنفذ الفكرة ، ولكنها ظلت تشغل تفكير رفاعة ، فلما قدم كتابه الثانى «قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » إلى المطبعة فى السنة التالية (١٢٤٩) بدأ يحتال على تنفيذ الفكرة ، ورأى أن يضع للكتاب فى أوله قاموسا صغيراً لشرح ماورد به من ألفاظ غريبة ، ودعا غيره من المترجمين أن ينهجوا نهجه ، فيحلق كل منهم بكل كتاب يترجمه قاموسا شبيها بقاموسه ، حتى إذا مضى بعض الوقت كان لمصر من جهودهم قاموس علمى كبير ، مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التى

---

(١) المعادن النافعة ، ص ٣ .

(٢) المعادن النافعة ، ص ٣ .

ليس لها مرادف أو مقابل فى لغة العرب أو الترك ، وهذا نص مقدمته للقاموس وشرحه للفكرة ، قال : « شرح الكلمات الغريبة التى توجد فى كتاب قلائد المفاخر . . مرتبة على حروف المعجم ، مضبوطة حسب الإمكان ، ومفسرة على الوجه الأتم سواء كانت أسماء بلدان أو أشخاص ، أو أشياء . ولما كانت هذه الألفاظ فى الأغلب أعجمية ، فلم ترتب إلى الآن فى كتب اللغة العربية ، وكان يتوقف فهم هذا الكتاب عليها عربناها بأسهل ما يمكن التلفظ به فيها على وجه التقريب ، حتى أنه يمكن أن تصير على مر الأيام دخيلة فى لغتنا ، كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية ، ولو صنع المترجمون نظير ذلك فى كل كتاب ترجم فى دولة أفندينا ولى النعم الأكرم ، لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجا ، ونظمها فى قاموس مشتمل على سائر الألفاظ المستحدثة التى ليس لها مرادف أو مقابل فى لغة العرب أو الترك ، فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب . »[1]

وقد كانت طريقة رفاعة فى هذا القاموس أن يكتب اللفظ بحروف عربية مراعياً طريقة نطقه باللغة الفرنسية ، ثم ينص على كيفية نطق هذا اللفظ بالطريقة الأزهرية القديمة ، ثم يشرح معنى اللفظ بجملة أو جمل تكثر أو تقل حسب الظروف ، وفيما يلى أمثلة من هذا القاموس :

١ — ابريزيلة = بسكون الموحدة ، وكسر الراء بعدها مثناه تحتية . فزاى مكسورة ، فلام . فتاء تأنيث ويقال أيضاً « ابرزيلة » و « ابرزيل » بفتح الراء = اسم لسلطنة كبيرة فى القطر الشرقى من أمريكا الجنوبية ، محكومة بعيلة (كذا) من بلاد «البرتوغال» ، وحاكمها يلقب «امبراطور» يعنى سلطانا ، أو قيصراً . وأهلها المتأصلون بها غير الافرنج أكثرهم قبائل أرباب شرور وجبر وتوحش عظيم ، حتى أن منهم من يأكل لحم الآدميين ، خصوصا لحم العدو الذى يقبضون عليه فى الحرب »[2] .

٢ — « اسقيمو = بكسر الهمزة ، وسكون السين ، بعدها قاف مكسورة ، فياء ساكنة . فميم مضمومة بعدها واو ، وربما زيد فيها شين معجمة ثقيلة «اسقيموش» = قبائل بشمال أمريكا حمل مثل أهل «لابونيا» والسويد ولهم توحش عظيم »[3] .

٣ — « أوبرا ، أوبرة = بضم الهمزة ، وكسر الباء الفارسية التى تقرأ بين الفاء والباء ، فراء مفتوحة ، هى أعلا « سبكتاكلات » فرنسا (راجع سبكتاكل) ، وتطلق على نوع مخصوص من الأشعار[4] الخ » .

وفى نفس الوقت الذى كان يفكر فيه رفاعة فى وضع قاموس ، ثم يحتال على وضعه هذا الاحتيال ،

---

(١) قلائد المفاخر ، ص ٢ .
(٢) قلائد المفاخر ، ص ٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٤ .
(٤) المرجع السابق ص ٨ .

كان موظف آخر اسمه « سريوس افندى » قد تقدم إلى محمد على بقاموس شامل للغات الخمس (وله يقصد اللغات الثلاث الشرقية واللغتين الأوربيتين الشائعتى الاستعمال الفرنسية والايطالية) ووافق محمد على على طبعه ، فقد قرر مجلس الجهادية فى ٢٥ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) « بناء على التماس سريوس افندى المترجم طبع الكتاب المشتمل على اصطلاحات اللغات الخمس السابق صدور أمر سعادة افندينا ولى النعم بطبعه بعد ترجمته وإصلاحه ، بشرط أن يقوم المترجم بمباشرة طبعه ، وأن يذهب بذاته لمراجعة تصحيحه بالمطبعة ، ويكون بمعيته رجل خبير باللغات الثلاث [١] » .

وقد رجعت إلى جميع القوائم التى أحصت الكتب المطبوعة فى بولاق فى عصر محمد على فلم أجد بها إشارة إلى هذا القاموس ، كذلك راجعت فهارس دور الكتب التى أفدت منها فلم أجد له فيها ذكراً ، فلعله لم يطبع .

أما رفاعة فلم ينس مشروعه ، بل حافظ على تنفيذه فى معظم الكتب التى ترجمها وطبعت بعد ذلك ، ففى سنة ١٢٤٩ طبع كتاب « مبادىء الهندسة » وفى أوله « معجم يتضمن بيان بعض كلمات هندسية ، وتفسير ألفاظ اصطلاحية ، ينتفع به الطلاب ، وتكمل به فائدة الكتاب » .

وفى سنة ١٢٥٠ طبع كتاب « التعريبات الشافية لمريد الجغرافيا » وفى نهايته « جدول الألفاظ الاصطلاحية المستعملة فى الجغرافيا بأنواعها ، مرتبا على حروف المعجم لتسهيل هذا الفن على الطالب » .

فلما أنشئت مدرسة الألسن ، وبدأ تلاميذها وخريجوها يترجمون ، أخذهم أستاذهم رفاعة بطريقته ، فظهرت معظم كتبهم وفى آخرها ملاحق مرتبة ترتيبا أبجديا لشرح الأعلام والألفاظ الاصطلاحية الواردة فى تلك الكتب ، فهذا خليفة افندى محمود قد ألحق بكتابه « أتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا » جدولا « لشرح الكلمات الغريبة » فى ٤٧ صفحة .

وهذا حسن افندى قاسم قد خصص ٢١ صفحة من كتابه « تاريخ ملوك فرنسا » لذكر « معجم البلدان والأماكن الخفية فى هذا الكتاب التى تحتاج للذكر ، وأما الأماكن الشهيرة فتطلب من كتب الجغرافيا » ، وقد قلد فيه أستاذه رفاعة تقليداً صادقا ، وهذه أمثلة من معجمه :

١ — « اكسيلاشبيل » بكسر الهمزة ، وسكون الكاف ، وفتح الشين المعجمة = مدينة ببلاد الألمان فى دوقية « باسرين » [٢] .

٢ — « كسل » ، بفتح الكاف ، وتشديد السين المهملة = مدينة فى فرانسا بفلندرة بمديرية الشمال [٣] .

٣ — « لنبرديا » ، بضم اللام ، وسكون النون ، وكسر الموحدة التحتية ، وسكون الراء وكسر الدال المهملة = اسم لجميع أجزاء ايطاليا من ابتداء ثغور طوسكانة إلى نهاية السويسة (يقصد سويسرا) [٤]

---

(١) الوقائع المصرية ، العدد ٣٤٨ ، فى رمضان ١٢٤٧ .

(٢) و (٣) و (٤) تاريخ ملوك فرنسا ، ص ٣ و ١٣ و ١٥ من المعجم .

وقد بدأ قاسم افندى يجدد فى الطريقة ، فقصر المعجم السابق على أسماء البلدان ، ثم ألحقه بمعجم آخر لأسماء الأعلام ، أو « معجم الرجال الموجودين فى هذا الكتاب » على حد تعبيره .

غير أننا نأخذ على هذه المعاجم أو القواميس الصغيرة كلها أنها أهملت ذكر الألفاظ والمصطلحات بالحروف اللاتينية إلى جانب الحروف العربية ، ولو أن المترجمين فعلوا هذا لأعفوا أنفسهم من الإطالة فى ذكر طريقة النطق بالأسلوب القديم .

وقد كان لتلاميذ الألسن وخريجيها جهود فى حركة وضع القواميس ، فصنف خليفة افندى فى سنة ١٢٦٤ قاموساً للغات الثلاث ، العربية والتركية والفارسية ؛ ونشرت الوقائع المصرية فى العدد ١٢٢ بتاريخ ٩ شعبان ١٢٦٤ « أن اليوزباشى محمود خليفة افندى المتخرج من مدرسة الألسن بالأزبكية قد ألف رسالة تشتمل على مفردات اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية ، فصدر الأمر بطبع ما يلزم منها على نفقة الميرى ، وإعطاء الأفندى الموى إليه ربحها ليحصل بذلك على السرور ، وينال الحظ الموفور » .

وذكر صالح مجدى فى ختام رسالته عن رفاعة « حلية الزمن » ثبتاً بأسماء تلاميذه ، فقال إن من بينهم « مصطفى بك السراج ، وقد شرع فى عمل قاموس فرنسى عربى لم يتمه » .

وقد امتد أثر رفاعة وتلاميذه فى هذا الميدان إلى المدارس الأخرى ، ففى مدرسة المهندسخانة اتبع بعض أساتذتها الطريقة السابقة ، فألحق احمد افندى فايد مثلا بكتابه « الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية ، نبذة فى ٣٨ صفحة « تشتمل على بيان ألفاظ هذا الفن الاصطلاحية » ، ولما خرجت الألسن دفعاتها الأولى عين منها اثنان هما أبو السعود وصالح مجدى فى مدرسة المهندسخانة ، وعهد إليهما بتدريس اللغة الفرنسية وترجمة مايلقى من دروس « ووضع قاموس أزمعت المدرسة وضعه فى العلوم الرياضية »[1] .

أما مدارس الطب ، فقد قام بالترجمة فيها أول إنشائها طائفة السوريين ، وقد بذلوا فى عملهم جهداً اجتهادياً ، فلما عاد أعضاء البعثات من الأطباء المصريين ، وبدأوا يشاركون فى حركة الترجمة ، كانت مهمتهم أسهل من مهمة أسلافهم السوريين ، وذلك لأنهم كانوا — إلى إتقانهم اللغتين العربية والفرنسية — على علم بالعلوم الطبية ومصطلحاتها .

ولكنهم مع هذا كانوا فى حاجة إلى قاموس طبى ، ولم يتبع طريقة رفاعة فى مدرسة الطب إلا الدكتور « برون » فى كتابه « الجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية » فقد ألحقه بذيل فى ١١٩ صفحة « لشرح الآلات الواردة فى الكتاب » ورتب هذا الذيل على حروف المعجم الشيخ التونسى مصحح الكتاب ، وقدم له بقوله : « وبعد فلما من الله سبحانه وتعالى بإتمام كتاب الكيميا للماهر فى جميع الفنون ، ناظر مدرسة الطب البشرى الشهير « بيرون » ، وكانت فيه أعمال جمة ، تحتاج إلى آلات معرفتها مهمة ، وكان لم يذكر فى الكتاب

---

(١) عابدين « دفتر ١٠ (مدارس عربى) بى ٩٩٤ « رقم ١٩٥ « إلى مدرسة الألسن فى غاية جماد ثانى ١٢٦١ » .

منها إلا القليل . . فقصد أن يجمع جميع الأشكال ، ويجعلها كالذيل ليكون بها الإتمام ، ولأجل أن تكون كلها بمجموعة فى ورقات قليلة ، لتسهل مراجعتها فى المهمات الجليلة ، فجمعها فى هذه الورقات ، ووضحها أتم توضيح كما هو المقصود للراجعات . وأمرنى أن أرتبها على حروف المعجم لتكون فى المراجعة أسهل وأقوم . فامتثلت أمره لما فيه من الفوائد الخ » . ومن الآلات التى شرحت فى هذا المعجم : الأنبوبة ، والأنبيق ، والبوتقة ، والجفنة ، وجهاز تعيين الوزن النوعى للهواء والغازات ودورق ولف ، والمختبار ، والمرشح . . الخ وكلها ألفاظ واصطلاحات لهؤلاء الطلائع الفضل فى كشفها أو صياغتها فإننا لا نزال نستعملها حتى الآن فى كتبنا الكيمائية .

غير أن كثرة الكتب الطبية التى ترجمت كانت تتطلب إيجاد أو ترجمة قاموس طبى ، وقد بدأت المدرسة بترجمة قاموس صغير [١] فى هذا الموضوع من تأليف « نايستن Nysten [٢] » ولكنه لم يف بالغرض ، فأحضر كاوت بك من فرنسا « قاموس القواميس الطبية Dictionnaire des Dictionnaires de Médecine تأليف « فابر . Fabre » وهو فى ٨ أجزاء ويشتمل على جميع الاصطلاحات العلمية والفنية فى الطب والنبات والحيوان والعلوم الأخرى المختلفة المتصلة بالعلوم الطبية .

وتعاونت مدرسة الطب بكل هيئاتها على ترجمة هذا القاموس إلى اللغة العربية ، « ففرقه ناظر المدرسة إذ ذاك « وهو الدكتور برون » على مهرة معلميها ، وهم : حضرة ابراهيم افندى النبراوى معلم الجراحة الكبرى ، وحضرة محمد على افندى معلم الجراحة الصغرى ، وحضرة محمد شافعى افندى معلم الأمراض الباطنية ، وحضرة محمد افندى الشباسى معلم التشريح الخاص ، وحضرة عيسوى افندى النحراوى معلم التشريح العام وحضرة العلامة السيد احمد افندى الرشيدى معلم الطبيعة ، وسعادة حسين افندى غانم الرشيدى معلم الاقرباذين والمادة الطبية ، وحضرة مصطفى افندى السبكى معلم أمراض العين ، وحضرة حسنين على افندى معلم النباتات فى ذلك الحين فترجم كل منهم الجزء الذى أعطيه ، واجتهد فى توقيع لفظه على المعنى حتى شكرت مساعيه [٣] » .

ولم يكتف الدكتور « برون » بهذا بل أراد أن يكون القاموس الجديد جامعاً أيضاً للألفاظ والمصطلحات الطبية القديمة ، فأتى بالقاموس المحيط ووزعه على أفراد هذه الهيئة ، وأشرك معهم مصححى المدرسة الشيخ محمد عمر التونسى ، والشيخ سالم عوض القنبانى ، والشيخ على العدوى ، وأمر كلا منهم أن يراجع الجزء الذى بيده ، وينتق منه « كل لفظ دل على مرض أو عرض ، وكل اسم نبات أو معدن أو

---

(١) Dunne, Printing and Translations. etc, p. 343.

(٢) ترجم هذا القاموس إلى اللغة التركية فى عهد السلطان عبد العزيز تحت عنوان : لغات طبية أثر جميع طبيه مثانية . وطبع فى الآستانة سنة ١٢٩٠ فى ٦٤٠ صفحة .

(٣) الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية ، ص (ج) من المقدمة .

حيوان » ، ولم يقنع « برون » بذا أيضاً ، يقول الشيخ التونسى : « ثم خصنى الناظر المذكور باستخراج ما فى القانون من التعاريف ، وما فى تذكرة داوود من كل معنى لطيف ، وزدت على ذلك ما فى فقه اللغة ، ومختصر الصحاح ، وما فى الهروى من التعاريف الصحاح ، وضممت لذلك أسماء الأطباء المشهورين ، وأسماء عقاقير كنت رأيتها فى بلاد السودان »[١] .

فلما تمت هذه الجهود جميعاً ، عهد بهذا القاموس الجديد إلى الشيخ التونسى ، فرتب الألفاظ والمصطلحات على حروف المعجم ، وراجعه مراجعة دقيقة ، ولم يألُ جهداً — كما قال — « فى تصحيح كلماته ، وتهذيب عباراته »[٢] ، فلما انتهى من هذا كله قابله معه وكيل مدرسة الطب الدكتور محمد شافعى أفندى ، وسماه التونسى فى النهاية «الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية» ، ولم يقصره على الألفاظ العربية ، بل ضمنه «أسماء لاطينية ، وأخرى فرنساوية ، وأخرى فارسية ، سواء استعملتها العرب أوكانت محدثة ودخلت فى الألفاظ الطبية لأدنى سبب »[٣] .

ولم يكد التونسى ينتهى من إعداد قاموسه حتى كان محمد على باشا قد لبى نداء ربه ، وأخذت الحياة العلمية فى عهد عباس الأول تركد وتخمد نشاطها ، وخشى كلوت بك أن يضيع القاموس فاصطحبه معه إلى باريس وفى التاسع من سبتمبر سنة ١٨٥١ قدمه هدية للمكتبة الأهلية[٤] Bibliothèque Nationale هناك .

وفى مفتتح القرن العشرين فكرت مصر ثانية فى هذا القاموس ، وأحضرت له نسختان شمسيتان أودعتا فى دار الكتب الملكية فى القاهرة ، وفى حدود سنة ١٩١٠ بدأت نظارة المعارف تفكر فى طبعه ، وعهدت بالأمر إلى الدكتور أحمد عيسى بك ، فنشر منه مائة صفحة فقط ، انتهى فيها إلى لفظ « أزدران » أى أنه لم يستوف حرف الألف . ولم يقف جهد الدكتور عيسى بك عند نشر النص العربى كما تركه التونسى ، بل أعاد ترجمة كل لفظ من ألفاظ القاموس إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، ونشره جامعاً لهذه اللغات الثلاث ، وطبع هذا الجزء على نفقة دار الكتب الخديوية ، فى مطبعة المقتطف بالقاهرة سنة ١٣٣٢ (١٩١٤) ، غير أنه وقف عند هذا الحد ولم يتم طبع بقية القاموس ، فظل حتى الآن منسياً فى دار الكتب ينتظر من يعنى بنشره وإحيائه .

وفى نفس الوقت الذى كان التونسى يعد فيه قاموس « الشذور الذهبية » ، فكر الدكتور « برون » فى طبع القاموس المحيط للفيروزابادى فى مصر ، وقد أشار إلى مشروعه هذا كثيراً فى رسائله إلى صديقه

---

(١) (٢) و (٣) الشذور الذهبية ، ص (ج — هـ) .

(٢) Dunne, Op Cit. p. 344 وقد عاب د . دنه على عميد كلية الطب (كان العميد وقت كتابة المقال هو على باشا ابراهيم) ، عدم معرفته بهذا القاموس حتى ذكره له ، وذكر أيضا أن الدكتور محمد بك شرف لم يحاول عند وضع قاموسه الطبى الجديد أن يفيد من قاموس التونسى ، وسمى مستر « دن » أنه أول بالقيد لعدم معرفته بمشروع طبع هذا القاموس ، وربما يذل الدكتور عيسى بك من جهد فى هذا السبيل ، هذا وقد أخبرنى عيسى بك مرة أن وزارة المعارف كانت قد كلفته بطبع القاموس بالاشتراك مع الدكتور فارس نمر باشا ، ولأمر ما تناسى نمر باشا عن الاشتراك ، ولهذا لم يكمل الدكتور عيسى بك نشر الباقى ، ثم أخبرنى أنه يعد الآن قاموسا طبيا أضخم وأوفى من الشذور الذهبية ، وأنه سيظهره قريبا .

« جول مول » ، فى خطابه إليه المؤرخ ١٤ يناير سنة ١٨٤٥ قال « وتكون مخطئا إذا حسبت أن القاموس يوجد عند العلماء ، فليس هناك فى القاهرة ولا فى مصر كلها عشرة علماء يملكون هذا القاموس ، بل ليس هناك عشرة علماء يعرفون كيف يستعمل القاموس » وختم خطابه بجملة فيها تهكم مرير ، قال « فلنعط إذن قاموساً للعلماء [1] » : "Donnons donc un dictionnaire aux Ulémas."

وقد ذكر لصديقه فى خطابات أخرى أنه أعد للأمر عدته ، فأحضر نسخاً كثيرة مخطوطة كما أحضر نسخة القاموس المطبوعة فى كلكتا سنة ١٢٣٠ — ١٢٣٢ ، وأنه اتفق مع الشيخ التونسى على مراجعة النسخ ومقابلتها أثناء الطبع ، وأنه طلب من الباشا أن يأذن له بطبعه [2] فى مطبعة بولاق ، غير أنى رجعت لأقدم نسخة من القاموس طبعت فى بولاق ، فوجدت أنها نشرت فى جزئين بإشراف وتصحيح الشيخين محمد قطة العدوى ونصر الهورينى ، وذلك فى سنة ١٢٧٢ [3] (١٨٥٦) بأمر محمد سعيد باشا ، ولم أجد فى المراجع التى أفدت منها ما يبين الأسباب التى عاقت « برون » والتونسى عن تنفيذ مشروعهما ، وجعلت تنفيذه على يد الشيخ نصر الهورينى .

واخيراً لا ننسى أن نذكر أنه بينما كانت هذه المحاولات تتخذ طريقها لوضع أو لترجمة أو لنشر القواميس ، كان هناك شيخان ، أحدهما انجليزى ، والثانى مصرى أزهرى ، يجتمعان كل ليلة — لمدة سبع سنوات — فى منزل متواضع بحارة الروم بالقاهرة وبين أيديهما نسختان من القاموس المحيط ، ونسخ كثيرة من قواميس اللغة العربية المختلفة ، فيقرآن ويراجعان ، ويتفهمان ويصححان ، فاذا مضى الهزيع الأول من الليل عاد الشيخ الأزهرى إلى داره ، وعكف الشيخ الانجليزى على ترجمة ما قرأ فى ليلته إلى اللغة الانجليزية ، فلما أتم تسعة أعشار القاموس عاد إلى وطنه ، وظل صديقه الأزهرى يوافيه بالعشر الباقى بعد مراجعته ، وهناك أتم ترجمة القاموس ، وطبع بنصه العربى والانجليزى الطبعة الأولى فى لندن سنة ١٨٦٣ تحت عنوان « مد القاموس عربى انكليزى Arabic English Lexicon » .

أما الشيخ الانجليزى فهو المستشرق المعروف « مسترلين M. Lane » ، وأما الشيخ الأزهرى فهو الشيخ ابراهيم عبدالغفار الدسوقى الذى يقول بعد أن قص قصة علاقته بصديقه : « وقد وردت أجزاء من الكتاب المترجم إلى بعض الذوات بمصر ، مطبوعة باللغة العربية والانكليزية باسم هذا الرجل ، مرسوما فيها صورتى ، والثناء على ما كان من مروءتى » [1] .

---

(١) Artin Pacha, Lettres du Dr. Perron. pp. 29, 90–62.

(٢) Voyage au Darfour p. 10. وانظر : Jomard فى مقدمته لكتاب Enc. Isl. Art. Tunisi

(٣) أنظر الطبعة الأولى من القاموس ، ج ١ ، ص ٦٨٠ ، ج ٢ ، ص ٦٨٥ ، وقد طبع طبعات أخرى فى مصر فى ١٢٨٩ و ١٣١٩ ، أنظر معجم سركيس ، ثم انظر عن هذا الموضوع مقالنا السابق الذكر دكتور برون والشيخان الطنطاوى والتونسى .

(١) كتب الدسوقى قصة علاقته بمستر لين بنفسه ، ونقلها عنه على مبارك ، الخطط ج ١١ ، ص ٩ — ١٣ ، أنظر أيضا أحمد أمين الثقافة ، العددان ١٢٦ و ١٢٧ و ثم انظر مقدمة قاموس لين .